العملية التأويلية في ظل النظرية السياقية والمعايير النصية

د. ليلى سهل
جامعة محمد خيضر - بسكرة.

لا يكون السياق أوّل آليات الخطاب في النص التي تحقق انسجامه فحسب؛ بل هو أساسه وجوهره، فهو الذي يوضّح ما يمكن أن يكون ملتبسا في هذا النص أو ذاك، وهو الذي يحدّد أغراضه ومقاصده بدقّة،ويحصر مجالات تأويله الممكنة فيه من جهة، ويرجّح التأويلات المقصودة منه من جهة أخرى.

فظلت السياقية عند كل من البنويين والتحويليين حبيسة أسوار الجملة بالمفهوم التقليدي أي عند الحد الذي يمكن أن يكون الكلام فيه ذا فائدة يحسن السكوت عليها على حد تعبير النحاة العرب، أما في لسانيات النص فقد خرج هذا المنهج بالدراسة اللغوية إلى وجهة جديدة إلى نطاق أكبر وأوسع من نطاق الجملة بالمفهوم السابق، إلى دائرة النص اللغوي بأكمله حيث ذهبوا إلى محاصرة النص ووصفه والكشف عن علاقاته التي تتحقق بها النصية، ومن هنا فقد قرروا أن علم لغة النص هو ذلك العلم الذي يكون قادرا على وصف وتفسير الملامح المشتركة والمتباينة بين هذه النصوص أو الأنماط من النصوص[1].

فالكلمات التي نراها أو نسمعها ترتبط فيما بينها ارتباطا وثيقا، وعلى نحو مشترك داخل السلسلة الكلامية طبقا للاعتمادات النحوية المقررة.ومن هنا فقد تم اعتبار النص اللغوي وحدة متكاملة يجب دراستها ككل لا يتجزأ، كما تم وضع المبادئ والأسس التي تتحقق بها النصية، بغض النظر عن الكم المادي للأحداث اللغوية المتتابعة أو سلسلة الجمل، فقد تكون

الجملة في ذاتها نصا إذا ما توافرت لها هذه المبادئ: السبك، الحبك، القصد، القبول، الإعلام، المقامية، التناص.

ولقد أصبحت الفكرة القائلة بإمكانها تحليل سلسلة لغوية طالت أو قصرت، دون مراعاة للسياق في السنين الأخيرة محلّ شكّ كبير، ويبدو من المستحيل مقاربة نص دونما مراعاة لسياقات مختلفة تحدّد دلالته؛ بحيث يتمكّن الواصف من معالجة مادته اللغوية بوصفها مدوّنة (نص) لعملية حركية استعملت فيها اللغة كأداة توصيلية في سياق معيّن من قِبل متكلم أو كاتب،للتعبير عن معان وتحقيق مقاصد الخطاب[2]؛ حيث إنّ حرفية الكلمات المنطوقة في الجملة أو في المفردة،لا تنبئ على دلالة ذلك المنطوق،أو معنى هذا الملفوظ وذلك راجع إلى المواقف المتعدّدة التي تستخدم فيها الكلمات،أو تنطق فيها الجمل. ومن ثمّ يمثل السياق الأساس في محاولة إدراك الدّلالات،وتمايز مراميها واختلاف مقاصدها، فهو بمثابة الجدّ الذي تنسب إليه جميع أحفاده جيلا بعد جيل، والمرجع الذي سيسند إليه جميع النسل.

وعلى الرغم من أهمية السياق وشيوعه في الدراسات الحديثة، فإنه لم يحظ بتعريف دقيق محدّد بين الباحثين، فهم لم يتّفقوا على تعريف موحّد يمكن الرجوع إليه، ولم تخرج محاولاتهم الجادّة عن بعض التعريفات العامة التي لا تشفي غليل الباحث المدقّق عن الحديث عن أبعاده وأنواعه وأهم عناصره.

مفهوم السياق:

يُعدّ المفهوم اللغوي للألفاظ الركن الأصيل في تحديد وتوضيح المعنى الاصطلاحي، بل إنّه لا يتّضح إلا من خلاله، ولذا كان من اللازم بيان المعنى اللغوي وعطف المعنى الاصطلاحي عليه.

ونورد ما جمعه "ابن منظور (ت 711هـ) من المعاجم المتقدمة من تداول لمادة "س و ق" وما يقودنا إليه هذا الأصل من معان احتوتها حروفه،حيث جاء في لسان العرب "ساق الإبل يسوقها سوقا وسياقا وهو سائق وسوّاق.وسوّاق يسوق بهنّ أي حاد يحدو الإبل فهو يسوقهن بحدائه، وسواق الإبل يقدمها"[3].

وقال "ابن فارس"(ت 395هـ) :"السين والواو والقاف أصل واحد وهو حدو الشيء يقال: ساق يسوق سوقا، والسيقة ما استيق من الدّواب، ويقال: سقت إليّ امرأتي أي صداقها واسقته،والسوق مشتقة من هذا، لما يساق إليها من كل شيء، والجمع أسواق والساق للإنسان والجمع سوق، وإنما سمّيت بذلك لأنّ الماشي ينساق عليها"[4].

و يمكن القول إنّ مصطلح السياق يطلق على مفهومين:

1. السياق اللغوي: الذي يقوم أساسا على علاقة الكلمات والعبارات بعضها ببعض على مستوى النص المكتوب أوالمنطوق، كما يتمثل في الأصوات والكلمات والجمل، كما تتابع في حدث كلامي معيّن أو نص لغوي[5]. وهو يعني ذلك المعنى الذي ورد لهذه الكلمة في المعجم أي معنى الكلمة في الجملة أو العبارة، أو بمعنى آخر المعنى الذي يفهم من الكلمة بين الكلمات السابقة واللاحقة لها في العبارة أو الجملة. ويتمثل ذلك في العلاقات الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية بين هذه الكلمات على مستوى التركيب. فقد نجد كلمة ما يختلف معناها باختلاف الكلمات التي تكون معها جملة أو عبارة،من ذلك مثلا كلمة "ضرب" فهي تعني : ضرب مدفعا بمعنى أطلقه، ضرب النار بمعنى أشعلها، ضرب بعقله بمعنى فكر...[6].

2. سياق التلفظ أو سياق الحال أو سياق الموقف.

وكان المفهوم الأول الأكثر شيوعا في البحث المعاصر، فهو الجواب البديهي عندما يتبادر إلى الذهن السؤال الهام ما السياق؟ فيتّضح بهذا المفهوم أنه تجسيد لتلك التتابعات اللغوية في شكل الخطاب من وحدات صوتية وصرفية ومعجمية، وما بينها من ترتيب وعلاقات تركيبية، وقد غدا مصطلح السياق من المصطلحات الشائعة والمؤثّرة في الدرس اللغوي الحديث منذ ابتدعه "مالينوفسكي"[7] ليتّسع مفهوم السياق خصوصا في الدراسات التداولية بما أنها تعدّه أساسا من أسسها، ولهذا تجاوز الباحثون التعريف النّموذجي إلى التّعريف الأرحب للسّياق، فأصبحت تعرف مجموعة الظّروف التي تحفّ حدوث فعل التلفّظ بموقف الكلام، وتسمّى هذه الظروف في بعض الأحيان بالسّياق.

وللسياق ألفاظ مرادفة تؤدّي معناه نفسه، كألفاظ المقام ومقتضى الحال والقرينة وغيرها:

1- المقام: يلتبس مصطلح السياق بمصطلح المقام، وهذا الالتباس ممتد بين زمنين وثقافتين، فقد شاع المقام عند العرب قديما عندما استعملوه في الدراسات البلاغية؛ في حين استعمل كثير من المحدثين خصوصا الغربيين مصطلح السياق، وإذا نظرنا إلى كلّ منهما فإننا نجد فروقا بين ما كان يقصده البلاغيون العرب،وما يقصده التداوليون في البحث اللغوي الحديث.وهذا ما يبديه "تمام حسان" عند تحفّظه على تحديد مفهوم المقام عند البلاغيين العرب،فهو يرى أنّ الفيصل في ذلك الاختلاف بين مفهومي المقام والسياق هو معرفة ما تنطوي عليه الثقافة، ففيها يرتبط كثير من المواقف بالاستعمال اللغوي مما يحدّ من إخضاع المقام للمعيارية التي تلتصق بتعريفات البلاغيين العرب، وذلك بقوله:"لقد فهم البلاغيون المقام أو مقتضى الحال فهما سكونيا قالبيا نمطيا مجرّدا، ثم قالوا لكل مقام مقال، فهذه المقامات نماذج مجرّدة أو أُطر عامّة وأحوال ساكنة، وبهذا يصبح المقام عند البلاغيين سكوني، فالمقام ليس إطارا ولا قالبا، إنّما هو جملة الموقف المتحرّك الاجتماعي الذي يعتبر المتكلم جزءًا منه،

كما يعتبر السامع والكلام نفسه وغيره مما له اتصال بالمتكلم، وذلك أمر يتخطّى مجرّد التفكير في موقف نموذجي ليشمل كل عملية الاتصال"[8] وعلى الرغم من الفارق بين فهمه وفهم البلاغيين للمصطلح الواحد،يجد لفظ المقام أصلح ما عبّر به عمّا فهم من المصطلح الحديث الذي يستعمله المحدثون، ومع هذا التحفّظ؛ إلا أنه يفضّل استعمال مصطلح المقام في النهاية مع مخالفته للعرب في مرجعه.

ويرى "عبد الهادي بن ظافر الشهري" "أنّ مصطلح السياق هو المصطلح الأنسب للصّفة التي يراها "تمام حسان"،وذلك للدّلالة على الممارسة المتّصلة بالفعل اللغوي الذي يتجاوز مجرّد التلفظ بالخطاب بدءا من لحظة إعمال الذهن للتفكير في إنتاجه، بما يضمن تحقيق مناسبة التداولية،بالرغم من أنه ليس من السهل تحديد مجال السياق، فيجب على أي واحد أن يأخذ بعين الاعتبار العالم الاجتماعي والنفسي الذي يؤثّر فيه مستعمل اللغة في أي وقت كان"[9]

ولقد حدد الدكتور عبد النعيم خليل أنّ سياق الحال أي المقام يقوم على أساسين:

1/ أن المعنى الدلالي الكامل للحدث اللغوي لا يقف عند حدود المعاني الوظيفية للأحداث اللغوية على جميع مستوياتها، بل هو جزء من سياق الحال أو المقام الذي تستخدم فيه الأحداث اللغوية في بيئة زمانية ومكانية معينة. فالأحداث اللغوية لا تقع بعيدة أو منفصلة عن العناصر الأخرى للسلوك اللغوي. إنها تتفاعل مع أنواع من السلوك الاجتماعي الإنساني المركب والمتنوع.وترتبط معه على نحو متبادل.هذه الأحداث اللغوية تأخذ مكانها في السياق الاجتماعي أو المقام.

2/ أن اللغة ظاهرة اجتماعية لا تتمثل في هذه الأحداث اللغوية على جميع مستوياتها الصوتية والنحوية والمعجمية، وإنما تضم هذه الأحداث اللغوية البيئة التي تستخدم فيها

والشخص الذي يتحدث بها، والآخر الذي يسمعها، والمشاركين لهذين والعلاقة بين هؤلاء جميعا، والأشياء المحيطة بهذه الأحداث والزمان والمكان ومستوى الحديث ونوعه ومجاله[10].

2- النظم: لقد تناول العلامة "الجرجاني" نظرية النظم وتحدّث على حدّ النظم وحقيقته، كما عرض لبيان الفرق بين نظم الحروف ونظم الكلم، قال :"نظم الحروف هو تواليها في النطق، ولا الناظم لها بمقتف في ذلك رسما من العقل اقتضى أن يتحرّى في نظمه لها ما تحرّاه، وأما نظم الكلم فليس الأمر فيه كذلك، لأنك تقتفي في نظمها آثار المعاني وترتّبها على حسب ترتيب المعاني في النفس، فهو إذن منتظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض، وليس هو النظم الذي معناه ضمّ الشيء إلى الشيء كيف جاء واتفق، ولذلك كان عندهم نظيرا لنسيج التأليف والصياغة والبناء...وما أشبه ذلك مما يوجب اعتبار الأجزاء بعضها مع بعض، حتى يكون لوضع كل حيث وضع،علة تقتضي كونه هناك،وحتى لو وضع في مكان غيره لم يصلح" [11].

3- دلالة الجمل أو مقتضى الحال أو قرينة الحال: فالبلاغة عند أهل البيان هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال، وهو عندهم مختلف؛ إذ إنّ مقامات الكلام متفاوتة، فمقام كل من التنكير والإطلاق والتقديم والذكر يباين مقام خلافه. ومقام الفصل يباين مقام الوصل،ومقام الإيجاز يباين مقام خلافه.ويقصد أهل البيان بمطابقة الكلام لمقتضى الحال،هو أنّ ارتفاع بيان الكلام في الحسن والقبول بمطابقته للاعتبار المناسب،وانحطاطه كذلك، إنما يكون بعدم المطابقة والموافقة؛ إذ مقتضى الحال هو الاعتبار المناسب.

فأهل البلاغة والبيان يطلقون المقام على مقتضى الحال، ويرى الدكتور "تمام حسان" تقارب مصطلحي الحال والمقام، حيث يعبّر عن ذلك بقوله: "إنّ مجموع الأشخاص المشاركين في المقال إيجابا أو سلبا، ثم العلاقات الاجتماعية والظروف المختلفة في نطاق الزمان والمكان،

وهو ما أسميه المقام، وهو بهذا المعنى يختلف عن فهم الأولين الذين رأوا حالا ثابتة، ثم جعلوا البلاغة مراعاة لمقتضى الحال" [12].

4- القرينة: وهي ما يوضّح المراد لا بالوضع؛ بل تؤخذ من لاحق الكلام الدال على خصوص المقصود أو سابقه. ولمعرفة العلاقة بين السياق والقرينة، فإنه يلزم التعرّف على نظرة الأصوليين، فمنهم من يرى أنّ السياق قرينة من القرائن، ومنهم من يرى أن القرينة جزء من السياق، وهذا ما يفهم من كلام بعض الأصوليين؛ إذ يقرّرون أنّ الدلالة في كل موضع بحسب سياقه،وما يحفّ به من القرائن اللفظية والحالية. فهم يعدّون القرينة من دلالة السياق وليس العكس، لأنّ السياق أعم من القرائن لظهوره على جميع المستويات الكلامية من صوتية أو صرفية أو نحوية أو دلالية، ولاشتماله على المقام بما يتضمّنه من عناصر حسية ونفسية واجتماعية[13].

وعبّر "عبد القاهر " عن أهمية السياق في إضفاء الجمال على الكلمة بقوله: "وجب أن يعلم أنه لا يجوز أن يكون الحكم بالرداءة والحسن في الكلمة المفردة"[14]، لأنّ تقدير كونه فيها يؤدي إلى المُحال، وهو أن تكون اللفظة المفردة التي هي أوضاع اللغة،قد حدثت في أوصاف لم تكن لتكون الأوصاف فيها قبل نزول القرآن،وتكون قد اختصت في أنفسها بهيئات وصفات وسمات يسمعها السامعون عليها، إذا كانت متلوّة في القرآن لا يجدون لها تلك الهيئات والصفات خارج القرآن.

كما يتناول الدكتور "محمود السعران" بالحديث المقصود بسياق الحال أو المقام، فهو يعني عنده مجموعة من العناصر: [15].

1.شخصية المتكلم والسامع وتكوينها الثقافي.

2.العوامل والظواهر الاجتماعية ذات العلاقة باللغة وبالسلوك اللغوي لمن يشارك في الموقف الكلامي، وكل ما يطرأ أثناء الكلام ممّن يشهد الموقف الكلامي من انفعال، أي ضرب من ضروب الاستجابة،وكل ما يتعلّق بالموقف الكلامي أيا كانت درجة تعلّقه.

3.أثر النصّ الكلامي في المشتركين،كالاقتناع أو الإغراء.

كما أفرد الدكتور "طاهر سليمان حمودة" فصلا بعنوان "نظرية السياق" في كتابه "دراسة المعنى عند الأصوليين"، تناول فيه التعريف بنظرية السياق باختصار شديد؛ حيث ارتضى السياقية منهجا لدراسة المعنى؛ يقول: "تعدّ نظرية السياق على النحو الذي حدّده "فيرث" في نظرنا من أفضل المناهج لدراسة المعنى، بسبب ما تميّزت به من عناية بالعناصر اللغوية والاجتماعية،والابتعاد عن كثير من الأفكار البعيدة عن الواقع، بسبب المنهج الذي طرحته لدراسة النصوص"[16]، كما أشار إلى أنّ استصحاب سياق الحال ضروري لدراسة النصوص اللغوية المكتوبة التي فقدت عنصرا هاما من عناصر السياق يتمثل في الأداء الصوتي، وعلى قدر ما يمكننا استحضاره من عناصر، يكون فهمنا للمعنى من حيث الدقة والوضوح؛ حيث يتوقف الفهم الدقيق للكثير من النصوص بسبب قطعها عن السياق الحالي،أو غيبة بعض عناصره.

كما وفّق البلاغيون في إدراك شيء مهمّ في الدرس اللغوي، وهو المقام، ولكن كعادتهم طبّقوه بطريقتهم الخاصة. لقد كانت عنايتهم في المقام موجّهة نحو الصّحة والخطأ،أو نحو الجودة وعدمها، ولهذا كانت نظرتهم إلى المقام أو مجريات الحال نظرة معيارية،لا وصفية[17]. وبذلك يختلف المقام عند البلاغيين عن سياق الموقف عند المحدثين،أضف إلى ذلك أن المقام عند البلاغيين معيار جمالي،أي يحكم براعاته ببلاغة المقال وبعدم مراعاته بعد البلاغة، وبهذا يكون النحاة أقرب إلى سياق الحال أو الموقف من البلاغيين.

ففي الغرب قد عرفت مدرسة لندن ما سميّ بالمنهج السياقي، وكان زعيم هذا المنهج "فيرث" "Firth" الذي أكّد على الوظيفة الاجتماعية للغة، ومعنى الكلمة عند أصحاب هذه النظرية هو استعمالها في اللغة، فالمعنى عند "فيرث" لا ينكشف إلا من خلال تسييق الوحدة اللغوية، أي وضعها في سياقات مختلفة، ويرى أصحاب هذه النظرية في شرح وجهة نظرهم أنّ معظم الوحدات الدلالية،تقع في مجاورة وحدات أخرى، وإنّ معاني هذه الوحدات لا يمكن وصفها أو تحديدها إلا بملاحظة الوحدات الأخرى التي تقع مجاورة لها[18]،فجعلت مدرسة "فيرث" من سياق الحال النصيب الأكبر في اهتماماتها،باعتبار أنه يبني شخصية المتكلم والسامع، وجميع الظروف المحيطة بالكلام، ونوع الوظيفة الكلامية.

ويمكن أن نستأنس بالتقسيم التقليدي الذي يستوحي مفاهيم نظرية السياق عند "فيرث" الذي يقسّم السياق إلى أربعة أقسام هي[19]:

1- السياق اللغوي: ويقصد به السياقات المتنوعة التي ترد فيها الكلمة،مثل كلمة "حسن" التي قد ترد وصفا للأشخاص كقولك: "رجل حسن أو ولد حسن"، فتعني به الناحية الخلقية وتقول: "طبيب حسن"، فتعني المتفوّق في الأداء. وقد ترد وصفا للمقادير كقولك: "دقيق حسن أو تمر حسن"، فتعني الصفاء والنقاوة.

2- السياق العاطفي: ويقصد به درجة القوة والضعف في الانفعال مما يقتضي تأكيدا أو مبالغة أو اعتدالاً، فكلمة (يعشق) غير كلمة (يحب)،على الرغم من اشتراكهما في أصل المعنى، وهو الحب، وكلمة يكره غير يبغض على الرغم من اشتراكهما في أصل معنى الكره.

3- السياق الثقافي: ويقتضي استحضار المحيط الثقافي، أو الاجتماعي الذي يمكن أن تستخدم فيه الكلمة. فكلمة جذر لها معان مختلفة باختلاف الشرّاح أو الأوساط الاجتماعية التي تستعملها، فهي عند المزارعين تعني معنى خاص بالجذر النباتي الذي يطمر تحت سطح

التربة، وعند اللغويين تعني معنى يرتبط بأصل المادة اللغوي الذي تشتق منه الكلمات، ولدى علماء الرياضيات تعني معنى آخر مرتبط بعالم الأرقام الحسابية.

4- سياق الموقف: ويعني الموقف الخارجي الذي يمكن أن تقع فيه الكلمة، أو العبارة مثل استعمال كلمة (يرحم) في عبارة (يرحمك الله) التي تقال للعاطس، وفي عبارة (الله يرحمه) في مقام الترحّم بعد الموت، فالأولى تعني طلب الرحمة في الدنيا، والأخرى طلب الرّحمة في الآخرة، وقد دلّ على ذلك سياق الموقف إلى جانب السياق اللغوي المتمثل في تقديم الفعل وتأخيره[20].

إنّ أوّل ما يلاحظ على هذا التقسيم هو عدم دقّته في التفريق بين السياق الداخلي (اللغوي)، والسياق غير اللغوي (الخارجي).فضلا عن دورانه على مستوى التمثيل للكلمة وإغفاله مستوى الجملة والنص بصفة خاصة.

ولعلّ أحسن من فصّل مفهوم السياق ووضّحه بالأمثلة المناسبة صاحبا كتاب تحليل الخطاب "براون ويول" اللذان تحدثا بإسهاب عن مفهوم السياق ومبادئه وملامحه وعملياته وعناصره، كمبدأ التأويل والتشابه، والمعرفة الخلفية والأطر والمدوّنات...فعلى المحلل مهمة صعبة،وهي أن يأخذ السياق بعين الاعتبار، وأن تتوفّر لديه مجموعة من المعلومات عنه، يمكن أن يحدّد الاحتياج إليها كثرة أو قلّة حسب النص، ولعل ما قاله "براون ويول" يشير إلى ذلك بشكل مباشر وصريح حيث يقولان: "ومن الوحدات اللغوية التي تتطلّب أكثر من غيرها معلومات عن السّياق، ليتيّسر فهمها نورد الأدوات الإشارية مثل: هنا، الآن، أنا، أنت، هذا...وذلك، فإذا أردنا أن نفهم مدلول هذه الوحدات إذا ما وردت في مقطع خطابي، استوجب ذلك معرفة هويّة المتكلم والمتلقي، والإطار الزماني والمكاني للحدث اللغوي، على حين توجد وحدات لغوية أخرى لا تحتاج إلى كبير معرفة بالسياق."[21]

وفي إطار حديثها عن دور محلل الخطاب في دراسته لنص ما تلمّسا لانسجامها، أن يأخذ بعين الاعتبار السياق الذي يظهر في الخطاب، والسياق لديها يتشكل من المتكلم الكاتب، والمستمع القارئ، والزمان والمكان، لأنه يؤدي دورا فعالا في تأويل الخطاب، بل كثيرا ما يؤدي ظهور قول واحد في سياقين مختلفين، وفي هذا الصدد يرى "هايمسHimess 1964 " أن للسياق دورا مزدوجا إذ يحضر مجال التأويلات الممكنة ويدعم التأويل المقصود[22]، وفي رأي هايمس: إن خصائص السياق قابلة للتصنيف إلى ما يلي:

المرسل: وهو المتكلم أو الكاتب الذي ينتج القول.

المتلقي: وهو المستمع أو القارئ الذي يتلقى القول.

الحضور: وهم مستمعون آخرون حاضرون يساهم وجودهم في تخصيص الحدث الكلامي.

الموضوع: وهو مدار الحدث الكلامي.

المقام وهو زمان ومكان الحدث التواصلي وكذلك العلاقات الفزيائية بين المتفاعلين بالنظر إلى الإشارات والإيماءات وتعبيرات الوجه...الخ.

القناة: كيف يتم التواصل بين المشاركين في الحدث الكلامي.

النظام: اللغة أو اللهجة أو الأسلوب اللغوي المستعمل.

المفتاح: ويتضمن التقويم هل كانت الرسالة موعظة حسنة، شرحا مثيرا للعواطف...

الغرض: أي إنّ ما يقصد به المشاركون ينبغي أن يكون نتيجة للحدث التواصلي[23].

فالسّياق يشمل بوجه عام جميع العلاقات المتبادلة بينه وبين مكوّنات التشكيل اللغوي الأخرى، أي إنّه يؤكّد أنّ الظاهرة اللغوية لا يمكن أن تُفهم منعزلة، وإنّما تفهم فقط بدراسة تشكيلاتها، يجعل بذلك النص ظاهرة لغوية باعتباره كلا متماسكا متّسقا،ليمدّنا أخيرا بقراءة مترابطة لهذا الكل المتلاحم المتّسق[24]، ولما كان النص الشعري فعلا تواصليا، يخضع لقانون العرض والطلب (سوق القراءة)، فإنّه لا محالة متوافر على سياق سواء أكان داخليا أم خارجيا.

وبالنظر إلى مبدأ السياقية، فإنه يمكن تقسيم الأسس السبعة لتحقيق نصية النص إلى مجموعتين، إحداهما تنتمي إلى السياق اللغوي، وتتضمن السبك والحبك والتناص، والثانية تتجه إلى سياق الحال أو المقام، وتتضمن القصد والقبول والإعلام والمقامية. فهذه المعايير من شأنها أن تحقق النصية، حيث تتنافى النصية، إذا تنافت هذه المعايير من المقطع اللغوي أو المتتالية الجملية ولنوضح المقصود بهذه الأسس فيما يلي:

أ/ المعايير التي تنتمي إلى السياق اللغوي:

1/ السبك*Cohésion يختص هذا المعيار بالوسائل التي تتحقق بها خصيصة الاستمرارية في ظاهر النص، ونعني بظاهر النص، الأحداث اللغوية التي ننطق بها أو نسمعها في تعاقبها الزمني، والتي نخطها أو نراها بما هي كم متصل على صفحة الورق، وهذه الأحداث أو المكوّنات ينتظم بعضها مع بعض تبعا للمباني النحوية، ولكنّها لا تشكّل نصا،إلا إذا تحقق لها من وسائل السبك، مما يجعل النص محتفظا بكينونته واستمراريته. ويجمع هذه الوسائل مصطلح عام هو الاعتماد النحوي، ويتحقق الاعتماد في شبكة هرمية متداخلة من الأنواع هي:[25]

1- الاعتماد في الجملة.

2- الاعتماد فيما بين الجمل.

3- الاعتماد في الفقرة أو المقطوعة.

4- الاعتماد فيما بين الفقرات أو المقطوعات.

5- الاعتماد في جملة النص.

ومن النّقاد من يجعل من الاتّساق خطوة أولى ضرورية للمرور إلى الانسجام، بمعنى أنّهم يعدّونه مرحلة هامة في تحقيق الانسجام،كالذي نجده عند الباحث"مفتاح بن عروس" حين يقول: " إنّه لا يمكن أن نتصور نصا منسجما دون أن يكون متسقا، وبهذا المعنى يكون الاتساق شرطا ضروريا للانسجام"[26]. ثم استشهد بذلك بقوله للناقد "ميشال كارول" Charolles. M":" وحتى يكون النص منسجما يجب أن يتميز بالاستمرار، وبمعنى لساني يجب أن يحتوي في مساره الخطي عناصر استمراره"[27].

ويقصد بالمسار الخطي للنص جانبه الشكلي(النحوي) منه. ومن العلماء من يقدّم تصوّرا دقيقا لصور الربط النصي، فيذكرون أنّ التماسك،أي الربط النحوي يعتمد على فهم كل جملة مكوّنة للنص في علاقتها بما يفهم من الجمل الأخرى[28]، ويشرحون العوامل التي يعتمد عليها الترابط على المستوى السطحي للنص، وما يتمثل في مؤشرات لغوية مثل علامات العطف والوصل والفصل، وكذلك أسماء الإشارة وأدوات التعريف والأسماء الموصولة وأبنية الحال والزمان والمكان وغير ذلك من العناصر الرابطة التي يعنى علم اللغة بتحديدها، وتقوم بوظيفة إبراز ترابط العلاقات السببية بين العناصر المكوّنة للنص في مستواه الخطي المباشر للقول[29]. ويلاحظ أن البحوث البلاغية القديمة قي علم المعاني، تقتصر في جملتها على هذا المستوى من الترابط القائم بين وحدتين من القول فحسب، وذلك عند تحليل مشكلات

الفصل والوصل، التي لا تكاد تتعدّى هذا التطابق الجزئي المحدود، مما جعل جهدها ينصب على المستوى النحوي أو التركيبي، دون أن يتجاوزه إلى التطابق الدلالي للفقرة الكاملة أو المتتالية النصية[30].

ومن الباحثين من نظر إلى النص نظرة تحويلية، فالتحويليون يجعلون لكل جملة بنية عميقة وأخرى سطحية، وهذا الأمر بالنسبة إلى النص يظهر ظهورا قويا حينما يبدو النص مفككا من السطح، ولكننا لا نلبث أن نتبيّن أن وراءه بنية عميقة محكمة في تماسكها، وتفسر تشاكل الأجزاء وتضمن اتساقها مع مشتتها الخارجي[31]، فقد نجد عددا من الجمل المتراصة لا يجمعها إطار شكلي، ولكن حين النظر إلى الإطار الدلالي الذي يتحكم في هذه الجمل المتجاورة يتبيّن الخيط الذي يضم حباب هذا العقد فيما بينها، وهذا يرتبط بأدوات التماسك الدلالي، وبالرجوع إلى السياق المحيط بالنص، يتمكن المتلقي من اكتشاف ذلك التواصل الدلالي[32].

2/ الحبك*Cohérence: ويعني الطريقة التي يتم بها ربط الأفكار داخل النص، وهو بذلك وجود منطق للأفكار مبني على الخبرة، وما يتوقعه الناس من النصوص في هذا المجال، ويتعلق هذا العنصر أيضا بالنص في حد ذاته، والالتحام يتطلب من الإجراءات ما تتنشط به عناصر المعرفة لإيجاد الترابط المفهومي واسترجاعه، وتشتمل وسائل الالتحام على:

1- العناصر المنطقية كالعموم والخصوص.

2- معلومات عن تنظيم الأحداث والأعمال والموضوعات والمواقف.

يعني العلاقات التي تربط معاني الأقوال في الخطاب،أو معاني الجمل في النص، إنه مفهوم يتم السعي من خلاله إلى تقريب ماهية الموضوع (موضوع النص) أين تكون وضعية القراءة طبيعية من قبل النصوص لكل من القارئ والمستمع، وذلك بعلاقات وروابط خاصة،

مثل هذه الروابط تعتمد على معرفة المتحدثين والسياق المحيط بهم، لأنّ "التناغم" شيء موجود في الناس لا في اللغة، فالناس هم الذين يحددون معنى ما يقرؤون وما يسمعون، فهم يحاولون الوصول إلى تفسير ينسجم مع خبرتهم، وفي الواقع لا تمثل قدرتنا على تفهم ما نقرأ إلا جزءا يسيرا من قدرتنا العامة على تفهّم ما ندركه وما نكتبه في الحياة[33]. ومن ثم يصبح النص منسجما إذا وجدنا سلسلة من الجمل تطوّر الفكرة الرئيسة،وهذا يعني الاستمرارية الدلالية التي تتجلّى في منظومة المفاهيم والعلاقات الرابطة بين هذه المفاهيم[34].

كما يورد "محمد مفتاح" مفهوم الانسجام بمعنى التنسيق، إذ هو العلاقات المعنوية والمنطقية بين الجمل،حيث لا تكون روابط ظاهرة بينها. والبحث عن العلاقات الخفية في النص هو الذي أطلق عليه جمهور الباحثين اصطلاح الانسجام، حيث يقول "محمد مفتاح":"إن هذا الالتحام وما يقتضيه من تنضيد وتنسيق، هو ما يدعى غالبا بانسجام النص لدى الدارسين البنويين المحافظين والمحللين للخطاب من اللسانيين"[35].

فالناقد رغم اعتماده على ما قدّمه الباحثون لمفهوم الانسجام لا يكلّف نفسه عناء التدقيق في ماهيته وما يتحلّى به في النص من عناصر وأدوات. وكما يورد مفهوم الانسجام بمعنى الترابط الفكري، ويقوم على الترابط المفهومي الذي تحققه البنية العميقة للخطاب، وتظهر هنا عناصر منطقية كالسببية والعموم والخصوص، وهي التي تعمل على تنظيم الأحداث والأعمال داخل بنية هذا الخطاب[36].

3/ التناصIntertextualité: هو التفاعل والتعالق والتداخل والالتقاء (اللفظي والمعنوي) بين نص ما ونصوص أخرى سبقته،واستفاد منها اقتباسا أو تضمّنا أو تنصيصا. والنص في هذه الحالة يمكن أن يتكوّن من نقول منظّمة، أو إشارات أو أخذات من لغات وثقافات عديدة[37]. فالنص ليس تركيبا لغويا عشوائيا، وإنما هو بناء حصيف يخضع لمعايير

عديدة، منها ما يتصل بالنص ذاته، ومنها ما يتصل بمنتجه ومتلقيه أو بسياقه بصفة عامة. وإن من شأن الإخلال بأحد هذه المعايير أن يجعل هذا البناء يختل بسب فقدانه لأحد مقومات انسجامه.

ب/ المعايير التي تنتمي إلى سياق الحال:

المقامية والإعلام والقبول والقصد: وهذه العناصر النصية مجموعة تتصل بسياق الحال أو المقام.

1/ الموقفية أو المقامية Situationalité: يمثل هذا المصطلح تسمية عامة للعوامل التي تقيم صلة بين النص وبين موقف واقعة ما، سواء أكان موقفا حاضرا أم قابلا للاسترجاع[38].والموقفية مناسبة النص للموقف، ذلك أن الخروج على الأنماط والأعراف يُذهب بمصداقية الكلام، ويخرج النص عن مقتضى الحال، ويخرجه إلى اللانص، ويتطابق هذا المعيار مع المقولة التراثية البلاغية "لكل مقام مقال"، ذلك أن النص يجب أن يكون مطابقا لمقتضى الحال، ويتضمّن العوامل التي تجعل النص مرتبطا بموقف سائد يمكن استرجاعه، وقد لا يوجد إلا القليل من الوساطة في عناصر الموقف كما في حالة يمكن الاتصال بالمواجهة في شأن أمور تخضع للإدراك المباشر، وربما توجد وساطة جوهرية،كما في قراءة نص قديم، ذي طبيعة أدبية يدور حول أمور تنتمي إلى عالم آخر[39].

والمقام يتعلّق بالسياق الثقافي والاجتماعي للنّص، ويعني أن يكون النص موجها للتلاؤم مع حالة أو مقام معين،بغرض كشفه أو تغييره، وقد يكون الموقف الذي يحمله النص مباشرا،يمكن إدراكه بسهولة،أو غير مباشر يمكن استنتاجه، ويفترض هذا العنصر وجود مرسل ومرسل إليه.

2/ الإعلامية أو الإخبارية Informativité : وتتعلق بإمكانية توقع المعلومات الواردة في النص أو عدم توقعها على سبيل الجدة، فالنص لا بد أن يحمل دلالات تحمل مضمونا إعلاميا يتنوع بتنوع النصوص، ولا يتحقق الانسجام في البنية النحوية الصحيحة للنص،إذا خلت من المحتوى الإعلامي، إذ لا يكون النص نصا بدونه، لذا اهتمت الدراسات الحديثة بمصطلح الإعلام، وحظي بجملة من التعاريف تنوّعت بتنوع المجالات التي بحث فيها كل من نظرية الإعلام وعلم النفس المعرفي والتداولية وتحليل الخطاب،فنجد أن كل نص من النصوص يهدف إلى تقديم بعض المعلومات في النص بحسب نوع النص. والملاحظ أن الإخبارية تكون عالية الدرجة عند كثرة البدائل، وعند الاختيار الفعلي البديل من خارج الاحتمال، حيث يجب على الناص المتحدث توزيع معلوماته في النص، بحيث لا يكون فيها قصور أو زيادة تخلّ بالتماسك العام للنص[40].

3/ المقبولية L'acceptabilité: ترتبط المقبولية بالمتلقي وحكمه على النص بالقبول والتماسك، ويعني ذلك أن القبول مرتبط بمجموع الدلالات التي يطرحها النص بشرط تماسكها والتحامها،وتحديدها بعيدا عن الاحتمالية الدلالية،أو عن جواز أكثر من وجه إعرابي. ومن هنا تكون المقبولية في نحو النص في مقابل مطابقة القاعدة في نحو الجملة، غير أنّها مع الجملة قد تسمح بالاحتمال الدلالي وتعدّد الأوجه الإجرائية،لكنها مع النص تنخفض درجة الاحتمال إلى الصفر، ويرجع الوجه الإعرابي المناسب مع النصوص العادية بصفة خاصة. والقبول يتضمن موقف مستقبل النص إزاء كون صورة ما من صور اللغة ينبغي لها أن تكون مقبولة من حيث هي نص ذو سبك والتحام، وللقبول أيضا مدى من التغاضي في حالات تؤدي فيها المواقف إلى ارتباك، أو حيث لا توجد شركة في الغايات بين المستقبل والمنتج[41]، ولا يعني القبول أن تكون الجملة موافقة للنظام اللغوي فقط. فقد تأتي حسب هذا النظام ولا تظفر

بهذا المبدأ، إنما القبول أن تأتي الجملة بحسب النظام اللغوي المفروض،كما يجب أن تتلاءم مع الواقع الخارجي للغة.

4/ القصد أو المقصدية L'intentionalité: يعد أحد المقومات الأساسية للنص، باعتبار أن لكل منتج خطاب غاية يسعى إلى بلوغها، أو نية يريد تجسيدها. فالقصد مرتبط بهيئة المنتج والوقوف على هذا العنصر أمر شائك في الدرس اللغوي، حيث يخفي المتحدث قصده في كثير من الحالات ولا معول في استخلاصه إلا باعتماده على المقام أو سياق الحال أو الظروف المحيطة بالمنتج، كما يمكن عن طريق التنعيم أن نتعرف الإقرار بنغمة أخرى وهكذا ولا يمكن الفصل بين هذا العنصر وعنصري السبك والحبك، حيث ينعكس القصد في كثير من الحالات على هذين العنصرين.

ويستمد مفهوم القصد شرعية وجوده في الدراسات اللسانية من أن كل فعل كلامي يفترض فيه وجود نية للتوصيل والإبلاغ، فلا يتكلم المتكلم مع غيره إلا إذا كان لكلامه قصد.ويتضمن مجموعة صور الأحداث اللغوية المعبّرة عن اعتقاد منشئ النص وموقفه ومقاصده التي يهدف إبلاغها إلى المتلقي. وبذلك يمكننا القول بأنّ القصد يرتبط بأول عنصر أساسي في عملية التبليغ المتمثل في المبلّغ أو المرسل المنتج للنص، الذي قد يكون شخصا عاديا أو أديبا لا ينتج النص مجانا، وإنما ينتجه لينقل من خلاله إلى المتلقي موقفه ووجهة نظره حول الموضوع الذي يطرحه في نصه. ولذلك تنتفي صفة النصية عن النصوص التي لا ينوي منتجها إيصال أية فكرة أو غرض إلى المتلقي. فهذا الأخير يتفاعل في الغالب تفاعلا إيجابيا أو سلبيا مع المقاصد التي يستخلصها بصورة مباشرة أو غير مباشرة من الأفعال اللغوية المختلفة المكونة لبنية النص، باعتبارها بنية كبرى، أو فعل خطاب عام. ولما كان النص مظهرا من مظاهر السلوك اللغوي، وشكلا من أشكال اللغة، فإنه يحتوي لا محالة عن قصد معين. وتكمن أهمية هذا الجانب في أنه يمثل جزءا مهما من دلالة الخطاب.

والقصد يتضمن موقف منشئ النص من كونه صورة ما من صور اللغة، قصد بها أن تكون نصا يتمتع بالاتساق والانسجام، وأن مثل هذا النص وسيلة من وسائل متابعة خطة معينة للوصول إلى غاية بعينها. وهناك مدى متغير للتغاضي في مجال القصد، حيث يظل قائما من الناحية العملية حتى مع عدم وجود المعايير الكاملة للترابط، والقصد يرتبط بهيئة المنتج.والوقوف على هذا العنصر أمر شائك في الدرس اللغوي، حيث يخفي المتحدث قصده في كثير من الحالات، ولا معول في استخلاصه إلا باعتماده على المقام، أو سياق الحال أو الظروف المحيطة بالمنتج.

فالسياق مسألة ضرورية في مجال اللغة؛ حيث يسمح لنا بالحديث عن الأشياء بدقة ووضوح، كما يقوم في أحيان كثيرة بتحديد الدلالة المقصودة من الكلمة في جملتها، وذلك من خلال المعايير التي تنتمي إلى كل من السياق اللغوي وسياق الحال.

الهوامش والمراجـــع

(1) عبد النعيم خليل، نظرية السياق بين القدامى والمحدثين دراسة لغوية نحوية دلالية، ط1، 2007، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ص337

(2)ينظر: جورج براون وجيليان يول، تحليل الخطاب، ترجمة محمد لطفي الزليطي ومنير التريكي، جامعة الملك سعود، دط، الرياض، 1997، ص 33.

(3) محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، ج10، ص 166- 169.

(4) أحمد بن فارس بن زكريا، مقاييس اللغة، تحقيق شهاب الدين أبو عمر، دار الفكر، ط2، بيروت، 1418هـ، ج3، ص 117.

(5)حلمي خليل، الكلمة دراسة لغوية ومعجمية، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1980، ص312.

(6) المرجع نفسه، ص211.

(7) ينظر: محمد يوسف حبلص، البحث الدلالي عند الأصوليين، عالم الكتب، ط1، القاهرة، 1411هـ، ص3.

(8) تمام حسان، الأصول، دار الثقافة، د.ط،الدار البيضاء، د.ت، ص332.

(9) عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، بيروت، 2004، ص42.

(10) عبد النعيم خليل، نظرية السياق بين القدماء والمحدثين دراسة لغوية نحوية دلالية، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، ط1،2007، ص84

(11) الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، مكتبة القاهرة، دط، مصر، 1980ص 250.

(12) تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها،عالم الكتب للتوزيع، ط3،القاهرة، 1998 ص 3

(13) ينظر: تمام حسان، البيان في روائع القرآن، القاهرة، عالم الكتب، 1413 هـ، ص 163.

(14) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 386.

(15) ينظر: محمود السعران، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، دار المعارف، دط، الإسكندرية، دت، ص339.

(16) طاهر سليمان حمودة، دراسة المعنى عند الأصوليين، الدار الجامعية للطباعة والنشر والتوزيع، دط، الاسكندرية، 1983، ص313.

(17) ينظر :محمد سالم صالح، أصول النظرية السياقية الحديثة عند علماء العربية، قسم اللغة العربية،كلية المعلمين، محافظة جدة، دط،دت، ص 09.

(18) ينظر: أحمد مختار عمر، علم الدلالة، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع، ط1،الكويت، 1982، ص68.

(19) ينظر: كمال بشر، دراسات في علم اللغة، دار المعارف، ج1، مصر، 1971، ص 69- 75.

(20)ينظر :كمال بشر، مرجع سابق، ص 73.

(21) جورج براون ويول،تحليل الخطاب، ص 35.

(22) براون ويول، تحليل الخطاب، ص37.

(23) محمد خطابي، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، ص53.

(24)ينظر :جورج براون ويول، تحليل الخطاب، ص 60- 61.

* ترجم هذا المصطلح تمام حسان إلى السبك، كما اعتمد الأستاذ بشير إبرير الانسجام، ومحمد خطابي عرّبه الاتساق والفقي اعتمد الترابط الشكلي، وسعد مصلوح الاعتماد النحوي.

(25)ينظر :سعد مصلوح، نحو أجرومية للنص الشعري، دراسة في قصيدة جاهلية، ص154.

(26) مفتاح بن عروس، حول الاتساق في نصوص المرحلة الثانوية(مقاربة لسانية)، مجلة اللغة والأدب، جامعة الجزائر، ع12، ديسمبر، ص431.

(27) Charolles M, Grammaire de texte, Théorie de discours narrative. P142.

(28)ينظر : سعيد حسن بحيري، علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، ص123.

(29)ينظر : صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، ص264.

(30)ينظر :المرجع نفسه، ص265.

(31)ينظر: سعيد حسن بحيري، علم لغة النص المفاهيم والاتجاهات، ص121.

(32)ينظر: المرجع نفسه، ص122.

* عرّب تمام حسان هذا المصطلح إلى الحبك، واعتمد صبحي إبراهيم الفقي وسعيد حسن بحيري التماسك الدلالي، واستعمل الدكتور بشير إبرير مصطلح الترابط الفكري.

(33) ينظر: جورج يول، معرفة اللغة، تر: محمود فراج عبد الحافظ، دار الوفاء، دط ،الإسكندرية، دت، ص146.

(34)ينظر: جميل عبد المجيد، البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، دط، مصر، 1998، ص154.

(35) محمد مفتاح، دينامية النص، تنظير وإنجاز المركز الثقافي العربي، ط2، الدار البيضاء، المغرب، 1999، ص44.

(36)ينظر: روبرت دوبوجراند، النص والخطاب والإجراء، ص103.

(37)ينظر: سعيد يقطين، إنفتاح النص الروائي، النص والسياق،المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء، المغرب، 1989، ص91.

(38)ينظر: إلهام أبو غزالة، علي خليل حمد، مدخل إلى علم لغة النص، ص12.

(39)ينظر: روبرتدوبو جراند، النص والخطاب والإجراء، ص104.

(40)ينظر: محمد محمصاجي، لسانيات النصوص ما هي؟، مجلة دفاتر الترجمة، ع1، جامعة الجزائر، 1993، ص90.

(41)ينظر: روبرتدوبو جراند، النص والخطاب والإجراء، ص104.